الفصل الثانى
سيكولوجية المرأة

١ ــ تطلع المرأة إلى الكمال

ليس من اليسير أن يقف الباحث موقفاً موضوعياً بحتاً فى دراسته لسيكولوجية المرأة أو الرجل كما لو كان يقوم بدراسة فى علم الكيمياء أو الطبيعة . فبوصفه إنساناً يصدر حكماً على بنى جنسه فإنه يميل من حيث لا يشعر إلى شىء من التحيز . فالباحث سواء تكلم عن جنسه أو الجنس الآخر متأثر بتجاربه السابقة وبالصورة التى قد يكون قد اكتسبها منذ طفولته عن أبيه وأمه وبالنموذج الذى تبلورت ملامحه وسماته خلال الخبرات التى عاناها، فى سن المراهقة عند ما كان يتلمس فى الجنس الآخر ما يرضى نهمه العاطفى . ويشبع حاجته إلى العطف والحب الناشىء .

الواقع أن هناك سوء تفاهم مزمن بين الجنسين يرجع عهده إلى فجر التاريخ . ومما دعم سوء التفاهم هذا أن المفكرين والمشرعين وخاصة المؤرخين كانوا من الرجال، وعند ما تحدثوا عن المرأة كثيراً ما وصفوها بالضعف والمكر والاحتيال وغيرهما

من الصفات التى يتخذها الضعيف للتغلب على القوى .

وحتى فى الحياة اليومية نرى أن بعض الأساليب التى يستخدمها الآباء فى تربية أطفالهم تخلق فى نفوس الناشئين سوء التفاهم بين الجنسين وتجعل كل جنس يقف من الآخر موقف الاحتقار والازدراء أو موقف التحفظ والحذر .

ومن واجبنا جميعاً أن نزيل سوء التفاهم هذا أو على الأقل أن نحاول مخلصين التخفيف من حدته . وأول خطوة يجب أن نخطوها هى البحث عن منشأ هذا الخلاف فى الرأى بين الجنسين عند ما يحكم كل منهما على الآخر . ويبدو لى أن السبب الرئيسى يرجع إلى محاولة كل منهما المفاضلة بينهما : أيهما أفضل وأرقى وأكمل من الآخر ، الرجل أم المرأة ؟ أيهما هو المثل الأعلى أو النموذج الذى يجب على الجنس الآخر أن يحاكيه أو أن يحققه فى نفسه . إن هذه الأسئلة لا معنى لها مطلقاً وإن دلت على شىء فإنها تدل على سذاجة فى التفكير ولا يمكن أن تصدر إلا عن شخص يقف موقف الأطفال الذين لم يتم بعد نضجهم الانفعالى . إذ أن المفاضلة أو المقارنة لا يمكن أن تقوم إلا بين شيئين أو أمرين خاضعين لنوع واحد من القياس . وهل ينطبق ذلك على الرجل والمرأة ؟ هل الاختلاف فى الجنس اختلاف عرضى كمى يعبّر عنه بالزيادة أو بالنقصان ، أم هو اختلاف جوهرى كالاختلاف الموجود بين نوع ونوع آخر .

يوجد فريق يذهب إلى أن الفرق بين الجنسين فرق جوهرى فطرى يرجع إلى اختلاف أساسى فى بناء الجرثومة التى ستكون إما ذكراً أو أنثى . فى حين أن فريقاً آخر يؤكد أن الفرق بين الذكر والأنثى هو فرق فى الدرجة وأن هناك سلسلة من الدرجات المتوسطة تصل بين الأنوثة والرجولة وأن التطور يبدأ من صورة الأنثى ويتجه نحو شكل أرقى هو كمال الرجولة ، فإن المرأة فى نظر أولئك القوم ليست إلا رجلا ناقصاً لم يكتمل نموه .

وقد يرد بعضهم على هذا الرأى بأن الذكر فى بعض الأنواع الحيوانية الدنيا يمكن الاستغناء عنه بالتخصيب الآلى : غير أن هذا النوع من الجدل هو ضرب من العبث عند ما ننظر إلى طبيعة الإنسان المتكاملة[١] . كل ما ينبغى أن نستوحيه من الدراسات البواوجية هو أن الجنين فى الإنسان عند ما يكون فى طور تكوينه الأول يحمل المعالم الأولى للجهازين التناسليين للجنسين ثم ينمو أحدهما ويضمر الآخر فيتجه الجنين فى نموه نحو صورة الذكر أو صورة الأنثى . على ذلك يمكن القول بأن أصل الرجل وأصل المرأة واحد غير أن جسم كل منهما يسلك فى نموه منذ مرحلة جنينية مبكرة إما طريق الذكورة أو طريق الأنوثة . وذلك استعداداً للقيام بوظائف مختلفة وإن

(١) راجع مقال المؤلف : « الجنسية من الوجهة البيولوجية فى ضوء المنهج التكاملى » فى « الكتاب السنوى فى علم النفس » لعام ١٩٥٤ .

كانت فى النهاية متممة بعضها بعضاً . وعلى ذلك الفرق فى التكوين التشريحى وما يستتبعه من تخصص فى الوظائف الفسيولوجية تتوقف الفروق السيكولوجية الموجودة بين الجنسين ، سواء فيما يختص بالدوافع والعواطف والصفات الخلقية أو بنوع الذكاء وطريقة التفكير ومدى تأثره بالعوامل الانفعالية .

فالنمو الأمثل الذى يجب أن تحققه المرأة هو اكتمال أنوثتها ، وذلك باستخدام الوسائل الملائمة لطبيعتها كمرأة . وكذلك فيما يختص بالرجل .

ومما هو جدير بالذكر ، بصدد سعى كل من الجنسين لتحقيق هدفه أن المرأة تستهدف مثلا أعلى يفوق فى صرامة مطالبه وفى سموه المطلق المثل الأعلى الذى يستهدفه الرجل . فإن المرأة تتطلع أكثر من رفيقها إلى المطلق وإلى استكمال النقص . ولهذا السبب كان طريق الأنوثة أشد وعورة من طريق الرجولة . وإزاء هذه الصعوبات التى تعترض تحقيق رسالتها كاملة كثيراً ما تلجأ المرأة إلى التضحيات الضخام وإلى إنكار ذاتها إلى حدّ البطولة الصامتة المستترة وراء قناع من الرضا المصطنع .

إن هذا الجانب الهام بل الجوهرى فى نفسية المرأة ليس من نسج الخيال أو من وحى الشعر بل هو حقيقة واقعية أسفرت عنها الدراسات التحليلية منذ نصف قرن فجاءت مؤيدة لشهادة التاريخ ولوحى الشعراء .

يقول فرويد منشىء التحليل النفسى فى بحث نشره عام ١٩٣١ عن الوظيفة الجنسية عند المرأة إن تحقيق التوازن لدى المرأة أشق بكثير من تحقيقه لدى الرجل، وإن أمامها ثلاثة طرق أحدها هو الطريق السوى المؤدى إلى الأنوثة الواضحة المستقرة غير أنه أشق الطرق مسلكاً. وأما الطريقان الثانى والثالث ففيهما شذوذ واعوجاج : فإما تشوية الخلق بتغلب عناصر الرجولة على الأنوثة أو كف النشاط الجنسى وكبته وفصله عن الوظيفة التناسلية .

ولنتساءل الآن عن منشأ هذا التطلع الفائق إلى الكمال المطلق الذى يطبع المرأة بطابعه الخاص ، قد يقول بعضهم إن المرأة لم تقف هذا الموقف إلا كرد فعل للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى فرضها عليها الرجل صاحب السلطة التشريعية وغيرها من السلطات ، والتى جعلتها تعتقد وتشعر أنها كائن ضعيف ناقص محكوم عليه أن يظل على الدوام قاصراً . والآن وقد نهضت المرأة من سباتها وأخذت تطالب بحقوقها المهضومة وبالمساواة التامة بينها وبين الرجل نجدها راضية بأن تخفف من وطأة هذا المثل الأعلى مشيرة إلى أن تسلك طريقاً أقل وعورة من الطريق الذى رسمه لها الرجل .

إن هذا الدفاع لا يصيب لب المشكلة فهو ضرب من التفكير الجدلى السطحى الذى قد يستخدم بنجاح فى الدعاية

السياسية الرخيصة ولكنه عديم القيمة من الوجهة العلمية . فإن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى تعيش فيها المرأة ليست هى العلة لشعور المرأة بالنقص ، بل هى معلولة لعلة أصلية يجب البحث عنها فى طبيعة المرأة نفسها وفى تركيبها الجسمى وفى وظائفها البيولوجية وفى رسالتها من حيث هى متجهة لنظام طبيعى يشملها ويفوقها ومن حيث هى مساهمة فى النظام الاجتماعى الذى تعيش فيه .

فإذا أردنا أن نفهم تطلع المرأة إلى المطلق والكمال على حقيقته يجب علينا أن نفهم طبيعتها الجسمية وأن ندرس العوامل التى تعين نموها من الوجهة التشريحية والفسيولوجية والبيولوجية . ثم بعد ذلك وفى ضوء الحقائق التى تقدمها لنا هذه الدراسة ننتقل إلى دراسة العوامل التى تعين نموها النفسى والاجتماعى . فلا يوجد أحد اليوم يستطيع أن ينكر الصلة الوثيقة التى تربط شروط النمو النفسى بشروط النمو الجسمى . ويتوقف استقرار النمو النفسى وثباته على مدى استقرار الوظائف الفسيولوجية وثباتها . ومن الحقائق التى لا تخفى على أحد أن التوازن الفسيولوجى فى المرأة أشد تعقداً وأدق تركيباً وأكثر تعرضاً للتغير والاختلال من التوازن الفسيولوجى فى الرجل . فلا غرابة إذن فى أن يكون التوازن السيكولوجى لدى المرأة أعسر تحقيقاً من التوازن السيكولوجى لدى الرجل ما دمنا نسلم بالارتباط الوثيق بين النفسى والجسمى وتبادل الأثر بينهما .

٢ ــ طبيعة المرأة من الوجهة التشريحية :

سنقسم حديثنا عن طبيعة المرأة من الوجهة الجسمية ، فى مقابل طبيعة الرجل ، إلى ثلاث نواح : أولا الناحية التشريحية أى شكل الجسم من الخارج ثم تركيب الأعضاء والأجهزة . ثانياً الناحية الفسيولوجية أى دراسة الوظائف العضوية الخاصة بالمرأة . ثالثاً الناحية البيولوجية أى وظيفة المرأة بصدد الحياة أى وظيفتها كأم . وسنشير فى أثناء معالجة كل ناحية من هذه النواحى الثلاث إلى أثر كل من العوامل التشريحية والفسيولوجية فى نفسية المرأة وسلوكها .

نتناول أولا الناحية التشريحية السطحية الخاصة بشكل الجسم كما يبدو فى نظر الأطفال . فمن المعاوم أن الأطفال يقومون بمقارنة بعضهم ببعض ومما يلفت نظرهم الاختلاف الموجود بين تركيب جسم الصبى الصغير وجسم البنت الصغيرة وقد لاحظ علماء النفس أن البنت الصغيرة تبدى اهتماماً أكبر من الصبى فى ملاحظة هذا الفرق . ويبدو هذا الفرق فى نظر البنت على أنه نقص وهى تدرك هذا الفرق بأنه نقص نظراً لصغر سنها وعدم اكتمال قواها العقلية وعجزها عن أن تفهم حكمة هذا الاختلاف فى التركيب الجسمى . ومما يضاعف أثر الشعور بالنقص لدى البنت الصغيرة موقف الكبار الذين

يقللون من شأن البنت ويرفعون من شأن الصبي . مثل هذا الموقف يشجع الصبيان المشاكسين على التفاخر بما حبّهم به الطبيعة من دلائل الذكورة والقوة . وحول هذا الشعور بالنقص الذى تعانيه البنت الصغيرة تثار عواطف أخرى من حسد وعداوة وحقد نحو الجنس الآخر الذى يبدو فى نظر البنت أسعد حظاً منها .

أعترف أنه ليس من السهل قبول مثل هذه الحقائق والتسليم بوقوعها ، بل سيصل البعض إلى وصف هذا الكلام بأنه مجرد أوهام صادرة عن مخيلة مريضة منحرفة . وإذا سلم جمهور المعترضين والمعترضات بأن الطفل حقاً يدرك أوجه الاختلاف أكثر من إدراكه أوجه التشابه وبأن البيئة فعلا — وخاصة فى شرقنا العربى — ترفع من قيمة الصبي وتحط من قيمة البنت ، فإنهم مع ذلك يرفضون التسليم ببقاء هذه الانطباعات الأولية فى نفس المرأة . الواقع أننا نسلم أيضاً بزوال هذه الانطباعات والتأثيرات من شعور المرأة ، غير أن الملاحظة الدقيقة لبعض ضروب السلوك لدى المراهقة والمرأة البالغة وكذلك المشاهدات الإكلينيكية تدل بصفة قاطعة على بقاء هذه الانطباعات المؤلمة فى اللاشعور وعودتها من جديد أثناء الحياة الزوجية .

والآن بعد هذه النظرة إلى الشكل الخارجى ننتقل إلى التركيب التشريحى الداخلى . فأول ما نلاحظه هو أن الجهاز التناسلى لدى المرأة أكثر تعقداً وأدق تركيباً وأشمل أثراً من الجهاز التناسلى لدى الرجل .

فالمرأة بحكم تركيبها التشريحى وبحكم وظيفة الحمل مركزة ، أكثر من الرجل ، حول نفسها ، وحياتها الجنسية مرتبطة بعدد أكبر من الوظائف أهمها وظيفة تكوين الجنين ووظيفة الرضاعة ، ويترتب على ذلك بعض الآثار النفسية الهامة . فقد تتنازعها أحياناً قوتان متضادتان : الاندفاع الجنسى من جهة والخوف من الحمل من جهة أخرى وقد تتغلب القوة الثانية على الأولى مما يؤدى إلى بعض المتاعب النفسية وإلى ألوان من القلق والانحراف .

ويؤدى تركيز المرأة حول نفسها إلى نوع من حب الذات أطلق عليه علماء النفس لفظ النرجسية . وهذا المعنى مستمد من أسطورة يونانية قديمة ، أسطورة الشاب الجميل نرجس الذى كان يقضى الساعات الطوال فى تأمل وجهه فى الماء والاستمتاع بجماله . فغضب الآلهة عليه وحولوه إلى الزهرة المعروفة الآن باسمه .

فلا شك فى أن المرأة أميل من الرجل إلى تأمل نفسها فى المرآة وتجميل وجهها ، بل هى تبدى اهتمامها ببنات جنسها وبأزيائهن وملابسهن ومختلف وسائل التجميل . وينتج من اهتمام المرأة الزائد بشكلها وجمالها ودرجة جاذبيتها شعورها الحاد الواضح بنقائصها الجسمية وبالتالى الصعوبة التى تعانيها فى إرضاء نفسها وتحقيق مثلها الأعلى فى الجمال والكمال .

وأخيراً نلاحظ فى تركيب جسم المرأة إذا نظرنا إليه فى

شكله العام أنه يمتاز بوحدة البناء وبقوة الترابط بين أجزائه وبدرجة عالية فى الانسجام والرشاقة حتى إن صورة الشكل الكلى تخفى الأجزاء التى تكوّن هذا الشكل، أو بعبارة أخرى يمتاز جسم المرأة باندماج الأجزاء بعضها ببعض كأنه أقرب إلى اللحن الموسيقى منه إلى الشكل الجامد المجسم .

ومما هو جدير بالذكر أن لهذه الصفات التى نلاحظها فى المجال الجسمى ما يناظرها فى المجال النفسى . فكما أن أجزاء جسمها تنساب بعضها على بعض كذلك نجد أنه من حيث التركيب العقلى لا توجد فواصل قاطعة بين عالم الفكر وعالم الحس وعالم العاطفة وعالم الحكم الأخلاقى والاجتماعى . فكل هذه النواحى مندمجة بعضها ببعض ومصبوغة كلها بصبغة عاطفية . وإذا كان منطق الرجل يتميز بنزعته العقلية الاستدلالية فإن منطق المرأة هو فى صميمه منطق العاطفة . وإذا كان ذكاء الرجل ذكاء تحليلياً فإن ذكاء المرأة أميل إلى التأليف والشمول ، فهو قائم على نوع من الحدس والإلهام ، هو ضرب من الفراسة السريعة ومن البصيرة التى تستشف بواطن الأمور دون أن تدرك تماماً كيفية هذا الاستبصار والاستشفاف . وعند ما تبدى المرأة حكمها على الأشخاص فكثيراً ما يعتمد رأيها على ضرب من المشاركة الوجدانية والتعاطف ، أى أنها تحكم حسب ما تشعر به من جاذبية نحو موضوع الحكم أو من نفور منه . وإذا

فقدت هذه القدرة على التجاوب العاطفى فإنها تفقد فى الآن نفسه قدرتها على فهم المواقف الإنسانية وتقديرها . ولا يعود إليها حسها السيكولوجى الدقيق إلا إذا نبضت فيها من جديد حياتها العاطفية .

وفى ختام هذا الحديث يجب التنبيه إلى أن هذه السمات المختلفة لا تظهر واضحة نقية إلا فى حالة الأنوثة المثالية الكاملة . وبما أن هذا المثل الأعلى للأنوثة من العسير أن يتحقق كاملا وأن النساء يشتركن فى هذا المثال الأعلى بدرجات متفاوتة فإنه يترتب على ذلك اشتراكهن أيضاً بدرجات متفاوتة فى هذه السمات السيكولوجية التى ذكرنا .

ومهما يكن من أمر هذا التفاوت فإن الوصف الذى قدمناه لطبيعة المرأة من الوجهة التشريحية وما يترتب عليها من سمات نفسية يظل صحيحاً فى مجمله . ولذلك ينبغى على الوالدين وعلى كل من تدعوه وظيفته فى المجتمع إلى العناية بتربية البنت أن يراعوا هذه الحقائق الأساسية وأن يعملوا على أن تسير البنت فى نشأتها طبقاً لطبيعة الأنوثة وأن يحولوا دون تنمية النزعات الرجولية التى قد تستسلم لها .

٣ — طبيعة المرأة من الوجهة الفسيولوجية والبيولوجية

ذهبنا فى الفقرة السابقة إلى أن السمات السيكولوجية

والاتجاهات العقلية مرتبطة إلى حدّ كبير بالشروط والعوامل التشريحية من شكل وبناء وتركيب وقد حصرنا هذه السمات والاتجاهات فى النقط الآتية :

أولا : إحساسها بالنقص العضوى وما يسببه هذا الإحساس من قلق وغيرة وحسد وعداوة .

ثانياً : تركيز المرأة حول نفسها ونزعتها إلى النرجسية وما يترتب على ذلك من اهتمام بجمال جسمها وجاذبية وبالتالى اهتمامها بأساليب الدلال ووسائل الإغراء .

ثالثاً : الدور الهام الذى تلعبه العاطفة فى توحيد نشاطها العقلى واتجاهاتها النفسية وما يمتاز به ذكاؤها من صفة الشمول والتأليف واعتماد حكمها العقلى على الفراسة والحدس .

كما لاحظنا أن طبيعة المرأة من الوجهة التشريحية تمتاز بالترابط الوثيق وبوحدة البناء . أما من وجهة الشروط الفسيولوجية ، فإن الأمر الذى يسترعى انتباهنا هو ضعف استقرار هذه الشروط وتعرضها للتغير السريع أثناء المراحل التى تجتازها المرأه : مرحلة الصبا ثم مرحلة البلوغ واكتمال النمو ثم مرحلة الأمومة . وهذه المراحل مختلفة بعضها عن بعض اختلاف المراحل التى تجتازها الفراشة فى نموها منذ أن كانت دودة ثم يرقة .

والوظيفة الهامة التى تخضع لتغيرات دورية كل شهر

هى وظيفة تكوين البويضة ،ولا يقتصر أثر تكوين البويضة وما يتبعه من عمليات فسيولوجية على إحداث الشعور بالتعب ، بل هناك آثار أعمق ترجع إلى إفراز الهرمونات الخاصة بالأنثى دون الذكر . وقبل أن نبين أثر هذه الهرمونات فى كيان المرأة من الوجهة الفسيولوجية والوجهة النفسية ، يجدر بنا أن نتحدث قليلا عن طبيعة هذه الهرمونات وعن الغدد التى تفرزها .

وإذا نظرنا إلى مجموع الوظائف التى تقوم بها أجهزة الجسم المختلفة نلاحظ أنها تمتاز بالتكامل ، أى بالتعاون الوثيق بينها وبانسجام عملها وتآزر آثارها . ويشتمل الجسم على أجهزة خاصة لتحقيق هذا التكامل ، الجهاز العصبى من جهة وجهاز الدورة الدموية من جهة أخرى . فالجهاز العصبى ينظم التنبيهات الحسية والحركية محققاً التآزر بين العضلات والتكيف مع البيئة الخارجية . أما جهاز الدورة الدموية فوظيفته الأساسية تغذية جميع خلايا الجسم وإبقائها مُعدة للقيام بعملها بدرجة متزنة من النشاط . ويقوم التكامل الذى يحققه جهاز الدورة الدموية على أسس كيميائية ، هذا فضلا عن الارتباط الوثيق بين الجهاز العصبى والجهاز الدورى .

وقد اكتشف العلماء منذ نصف قرن تقريباً عاملا هاماً من عوامل التكامل الكيميائى ، هو مادة كيميائية عضوية سميت بالهرمون تفرزها غدد معينة ، صغيرة الحجم ، تختلف

فى تركيبها عن الغدد الأخرى التى كانت معروفة من قبل مثل الغدد اللعابية والغدد الدمعية والغدد العرقية . وقد سميت الغدة المفرزة للهرمون بالغدة الصماء ، أى المغلقة على نفسها دون أن تكون لها قنوات خارجية لتوصيل الإفرازات ؛ بل هى تفرز مادتها مباشرة فى الدم بفضل العدد الكبير من الأوعية الدموية الدقيقة التى تتخللها . وأهم هذه الغدد الصماء هى الغدة النخامية فى الدماغ والغدة الدرقية فى الرقبة والغدة الأدرينالينية الموجودة فوق الكلية والغدد الموجودة فى البنكرياس والتى تفرز هرمون الأنسولين ، وأخيراً الغدد التناسلية التى تفرز إفرازاً داخلياً فوق إفرازها الخارجى .

وهذه المواد الكيميائية العضوية التى تفرزها الغدد الصماء تؤدى دوراً هاماً فى تنظيم النمو الجسمى والعقلى كما أن لها أثراً كبيراً فى الحالة المزاجية والوجدانية عامة والانفعالية بوجه خاص .

وسنتحدث بشىء من الإسهاب عن الغدة التناسلية نظراً للدور الهام الذى تؤديه فى حياة المرأة من الوجهتين الجسمية والنفسية . فالمبيض كما هو معلوم هو العضو الذى يطلق كل شهر البويضة بعد أن تكون قد نضجت وأصبحت صالحة للتخصيب . ولكن المبيض يفرز أيضاً نوعين من الهرمون ، الواحد بعد الآخر فى فترات معينة ، يسمى الهرمون الأول الفليكولين والثانى لوتيين . ولكل منهما أثر خاص يتجاوز حدود

العمليات الجسمية إلى الحالة النفسية والمزاجية ، حتى أن بعضهم سمى الهرمون الأول بهرمون الحب والثانى بهرمون الأمومة ، كأن المرأة فى مدى كل شهر تمر بمرحلتين نفسيتين مختلفتين : مرحلة الزوجية ثم مرحلة الأمومة . وهذا يفسر لنا بعض ما يصيب المرأة من تقلب فى المزاج ، من الانتقال من حالة الفرح والاطمئنان والهدوء المتزن إلى حالة الكآبة والقلق والتوتر . فهى كالآلة الموسيقية المهددة ببعض الخلل والتى تتطلب باستمرار تنسيق أوتارها برفق ولين . ويقع عبء هذا التنسيق على كاهل الزوج الذى قد تصدمه أحياناً هذه التقلبات الفجائية فى مزاج زوجته . غير أنه إذا فهم تماماً هذه الشروط الفسيولوجية العميقة التى تخضع لها المرأة يصبح من السهل عليه أن يساعد زوجته على أن تجتاز بسلام هذه الأزمات الدورية .

وهذا يجعلنا ننتقل إلى التحدث عن طبيعة المرأة من الوجهة البيولوجية ، أى من وجهة وظيفتها بصدد الحياة وبقاء الجنس أى وظيفة الأمومة .

وحالة المرأة بصدد وظيفة التناسل وبقاء الجنس أكثر تعقداً من حالة الرجل . فالمرأة كما قلنا تقع تحت تأثير هرمونين مختلفين ، هرمون الحب وهرمون الأمومة ، وقد يكونا فى حالة تضافر وتعاون أحياناً وفى حالة تنافر وتضاد أحياناً أخرى ، كأن المرأة تتذبذب بين قطبين ، بين الحب من جهة وبين

الأمومة من جهة أخرى . ووظيفتها فى كلا الجهتين متعددة النواحى والأدوار وقد تكون هذه الأدوار أيضاً أحياناً متضافرة متعاونة وأحياناً أخرى متنافرة متضادة ، فهى تقوم بدور الزوجة نحو زوجها وبدور الأم نحو أبنائها ، وسوف نشير إلى أنواع الصراعات التى تنشأ من ازدواج دور المرأة وكيف قد يكون أحياناً من العسير التوفيق بينهما وتحقيق التوازن والعدالة بين مطالب كل من الزوج ومن الابن .

ثم إن هناك ازدواجاً فى موقف المرأة من حيث هى زوجة تنشد الحب ، فعليها فى بادىء الأمر أن تلعب دوراً إيجابياً فعالا ، وميلها الطبيعى إلى التجميل واستخدام أساليب الإغراء والجذب يساعدها على القيام بهذا الدور . ثم عليها فى نهاية الأمر أن تستسلم وأن تقبل طيعة راضية ما يبدو فى الظاهر انه هزيمة ، فى حين أنه فى واقع الأمر تلبية المرأة لنداء الحياة الجاهدة فى البقاء .

وهذه النقطة الأخيرة جديرة بأن تستوقفنا قليلا ، لأنها تكشف عن أعمق سر من أسرار طبيعة المرأة : فهى ترغب وتخشى فى آن واحد كأن هناك غريزة مضادة لغريزة الجنس ولا يتم تغلب غريزة الجنس إلا إذا ضحت المرأة بأنانيتها وحبها لذاتها . وهذه التضحية أشق على المرأة المتمدنة منها على المرأة التى تعيش عيشة ساذجة طبيعية . غير أن سعادتها الحقيقية

تتوقف فى نهاية الأمر على مدى إخلاصها وعمق تضحيتها .

ومن الواضح جداً أن هذا الميل إلى البذل والتضحية يظهر ويقوى عند ما تصبح الفتاة قادرة على تأدية وظيفتها البيولوجية . نعم إن البنت الصغيرة تميل فى لعبها إلى محاكاة دور الأم فهى تفرح عند ما يهدى لها عروسة صغيرة تعنى بها وتعاملها كأنها طفلة فتحيك لها الملابس وتهيئ لها فراشها وتراقب نومها مخاطبة إياها أحياناً بلطف وتدليل وأحياناً أخرى بعنف وصرامة وغير ذلك من أساليب اللعب المستحبة لدى البنت ، غير أنها لا تشعر فى الواقع بما يناسب هذه المواقف من عواطف وانفعالات . فالطفلة حتى السنوات الأولى من مرحلة المراهقة تكون من الوجهة العاطفية مركزة حول نفسها كأنها فى حاجة إلى كل طاقتها النفسية لتدعيم شخصيتها الناشئة وإثبات ذاتها ولا ينمو فيها الميل إلى البذل والتضحية إلا عندما تنضج وتصبح صالحة للقيام بوظيفة الأمومة .

غير أننا نعود فنقرر أن رسالة المرأة ليست مقصورة على ما تبذله من تضحيات فى سبيل وظيفتها البيولوجية من حمل ورضاعة ورعاية أطفالها . فقبل كل ذلك إن من حقها أن تحظى بحياة زوجية سعيدة وبأن تجد فى حب زوجها لها وفى حبها لزوجها ما يرضى حاجاتها الوجدانية من لذة وسرور ورغباتها العاطفية من حب واطمئنان وتقدير . وسوف نرى عند

حديثنا عن الحب والأمومة أنه من المحال الفصل بينهما وأن حق المرأة فى الحب لا يقل عن حقها فى الأمومة وأن فقدان أحدهما لا يمكن أن يعوضه الآخر إلا إلى حدّ ما وعلى حساب سعادتها الحقة وتوازنها النفسى .

٤ — سيكولوجية المرأة من الوجهة العاطفية

أشرنا فيما سبق إلى العلاقة الوثيقة الموجودة بين التركيب الجسمى والوظائف الفسيولوجية الجنسية وبين بعض السمات النفسية التى تكون أكثر وضوحاً فى المرأة منها فى الرجل . ولم نغفل أثر البيئة والتربية فى نمو هذه السمات أو تعطيلها أو تشويهها . ويظهر أثر البيئة واضحاً عندما نتأمل تطور المرأة من الوجهة العاطفية . فالعواطف من أهم دوافع السلوك ومن العوامل الفعالة التى تعين نوع العلاقة بين الأفراد وشدة هذه العلاقة . ويجب أن نذكر أن تكوين العواطف لا يرجع إلى أثر البيئة فحسب بل هى تقوم أولا على ما زود به الإنسان من ميول فطرية تمتزج جذورها النفسية بالجذور الفسيولوجية من إحساسات متنوعة ومن ضروب الاستجابات التى تؤديها العضلات والغدد .

ومن أهم هذه الإحساسات الفطرية التى ستدخل فى تركيب العواطف الإحساس باللذة والإحساس بالألم . أما الاستجابات العضلية فتكون إما بالبسط أو بالقبض ، بالإقدام أو بالإحجام.

ومن هذه المواد الأولية من إحساسات واستجابات وما وراءها من ميول ودوافع فطرية ستتكون العواطف متخذة أحياناً صورة الانفعال أو أحياناً أخرى صورة الاتجاه الوجدانى المستقر إلى حدّ ما . ومما يساهم فى تعقيد الانفعالات ونمو العواطف وتطورها العوامل العقلية من إدراك وفهم وتذكر وتخيل وتفكير والتى تنشط بتأثير المواقف الاجتماعية المختلفة التى تحيط بالمرء منذ طفولته الأولى .

هذه المقدمة تمهد لنا السبيل إلى فهم تطور الحياة العاطفية[1] وتنمو هذه الحياة فى صورة واحدة عند الصبي وعند البنت فى السنوات الثلاث الأولى ثم تظهر بينهما بعض الاختلافات الهامة سنتحدث عنها بعد الكلام عن المرحلة الأولى المشتركة التى تنتهى فى أواخر السنة الثالثة من عمر الطفل .

يسير التطور الوجدانى فى مجالين متميزين أحدهما عن الآخر فى بادىء الأمر ثم يتم المزج والتكامل بينهما كلما تقدم المرء نحو النضج العاطفى وهذان المجالان هما حسب تاريخ تنشيطهما المجال الحسى أولا ثم المجال العاطفى الذى يقوم فى بعض أسسه على المجال الأول .

---

(١) انظر : « مراحل النضج العاطفى والاجتماعى » فى كتاب « مبادئ علم النفس العام » للمؤلف . ص ٣٥٠ — ٣٥٤ الطبعة الثانية ١٩٥٤ — دار المعارف بمصر .

نلاحظ فى المولود الحديث أن معظم نشاطه يدور حول وظيفة التغذية فهو بمثابة جهاز هضمى فحسب ؛ وسائر الوظائف الأخرى من حسية وحركية ليست إلا خدمة لهذا الجهاز . والحواس التى تكون أكثر نشاطاً من غيرها هى الذوق والشم واللمس . ويكون نشاط هذه الحواس وما يصاحب تنبيهها من حركات مركزاً فى بادىء الأمر فى الفم وهو مدخل الجهاز الهضمى . ففى أثناء الرضاعة يقوم الرضيع بحركات الامتصاص التى تسبب له لذة معينة وهو فى الوقت نفسه يستمتع بما يحسه من دفء عند ما تضمه أمه إلى صدرها . وعلى ذلك تكون منطقة الفم المركز الأول للإحساس باللذة كما قد تكون أحد مراكز الإحساس بالألم والتقزز عند ما توضع فى فمه مادة مرة مثلا.

ثم خلال النصف الثانى من السنة الأولى تصبح منطقة أخرى مركزاً جديداً لهذه الإحساسات من لذة وألم وهذه المنطقة الجديدة هى الطرف الآخر من القناة الهضمية . وفى أثناء تدريب الطفل على النظافة فإنه يختبر ألواناً جديدة من اللذة والألم ويبدأ يفهم دلائل الرضى أو السخط الصادرة من أمه . وأخيراً فى أواخر السنة الثالثة يكتشف الطفل منطقة ثالثة يتركز فيها الإحساس باللذة هى المنطقة التناسلية[1] .

---

(١) راجع بهذا الصدد مقال المؤلف : « نمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته » فى « مجلة علم النفس » المجلد الثانى ، يونيو ١٩٤٦ ؛ ص ٣ — ٢٤ . الناشر : دار المعارف بمصر .

وفى أثناء هذه السنوات الثلاث تبدأ العلاقات الاجتماعية تتكون بين الطفل وبين أفراد أسرته وأقوى هذه العلاقات هى التى تربطه بأمه وليست هذه العلاقة بالعلاقة البسيطة فالأم هى مصدر اللذه للطفل وهى أيضا مصدر الألم والحرمان أحياناً ولكن بعد أن يكتشف الطفل فى جسمه المنطقة التناسلية ويأخذ فى البحث عن موضوع خارجى للحب بعد أن كان حبه مركزاً حول جسمه يحدث اختلاف هام فى التطور العاطفى لدى كل من الصبى ومن البنت .

فإن طاقة الحب التى أخذت تشع نحو الخارج تتجه نحو شخص من الجنس الآخر كأن فى هذا الاتجاه تمهيداً للاختيار الطبيعى الذى سيقوم به البالغ فيما بعد تلبية لنداء الحياة الجاهدة فى البقاء .

فالطفل الذكر سيحتفظ بأمه كموضوع خارجى لحبه أما البنت الصبغيرة فإن تطورها العاطفى أكثر تعقيداً ووعورة . فهى كرضيعة متعلقة بأمها ومرتبطة بها برباطات حسية وعاطفية. فعليها لكى تسير وفقاً لقانون تطورها الطبيعى أن توجه عاطفتها نحو الأب وأن تقبل لا شعورياً ما تحدثه من حرج وقلق منافستها لأمها نتيجة لتحويل عاطفتها نحو أبيها . ولكن يجب أن نؤكد أن موقف التنافس هذا لا يتنافى مع قيام عواطف المحبة والحنان نحو الأم . قد يبدو ذلك تناقضاً ولكن ذلك

هو قانون الحياة العاطفية أن تجتمع العاطفتان المتضادتان فى شخص واحد ، إحداهما شعورية والأخرى لا شعورية . وقيام هذا التناقض العاطفى فى الإنسان هو من أهم عوامل الصراع النفسى الكامن فى كل شخص والذى قد يتفجر عند ما يختل التوازن النفسى أو يصاب المرء بصدمة عنيفة لا يقوى على تحملها .

ولكن تعلق البنت الصغيرة ليس سوى مرحلة من مراحل تطورها العاطفى . ويقتضى التطور الطبيعى أن تتحول طاقة الحب من الأب إلى الشاب الذى ستختاره الفتاة ليكون شريك حياتها وأب أبنائها . أما إذا ظلت مثبتة فى حبها اللاشعورى نحو أبيها أى إذا وقف تطورها العاطفى عند هذه المرحلة الطفلية فستكون معرضة للشذوذ والانحراف نظراً لعدم إدماج التيارين الحسى والعاطفى وعدم تكاملهما . فهى بالغة من الوجهة الحسية ولكنها لا تزال طفلة من الوجهة العاطفية . وكثيراً ما يؤدى عدم النضج العاطفى إلى تعطيل الوظيفة الحسية وما يجب أن يصاحب تنشيطها من لذة وسرور .

إن الحقائق الخاصة بطبيعة المرأة من الوجهة العاطفية هامة جداً يجب أن تسترعى انتباه المربين . وإذا ذكرنا ما تعانيه البنت من شعور بالنقص يتضح لنا أن تطور المرأة النفسى أكثر صعوبة من تطور الرجل . وعلى ذلك تكون تربية البنت

أشق من تربية الصبي وتتطلب عناية أكبر وفهماً أدق لكى نضمن لها فى المستقبل حياة سعيدة متزنة . وإننا لا نبالغ إذا قررنا أن بعض الحركات التحريرية التى تدعو إليها بعض زعيمات الأحزاب النسائية المتطرفة صادرة عن عقد نفسية لم تجد حلها الطبيعى فصارت تبحث عن وسائل التعويض فى ميادين تفرض على المرأة أعباء لا تتلاءم مع طبيعتها ، فهى وسائل تعسفية للتعويض إن أرضت المرأة فى بادىء الأمر فأنها لا تلبث طويلا حتى تضيف ألواناً جديدة من الشقاء إلى الشقاء الذى قد تعانيه نتيجة لجهل المربين أو لما يعانونه أنفسهم من انحرافات نفسية .

وتوضيحاً لما سبق سنطبق الحقائق التى استخلصناها حتى الآن فى كلامنا عن الحب ومشكلات الزواج فى الفصل القادم .